ابن سليم الأسوانى وكتاب أخبار النوبة

الحاج حمد محمد خير

إنّ دراسة التاريخ ـ كما هو معروف ـ تبدأ وتنتهى بدراسة المصادر. وفى حالة تاريخ السودان فانّ دراسة المصادر تكتسب أهمية قصوى بسبب ندرة هذه المصادر ـ خاصة المكتوبة. وتزداد هذه الأهمية رسوخا إذا كان هذا المصدر يتناول تاريخ السودان الوسيط إذ أنّ البحث الأثرى قد وفّر مادة عظيمة عن المجتمعات السودانية القديمة ممّا سهّل وجود عدد كبير من الدراسات العلمية عن هذه الفترة. كذلك وفّرت دور الوثائق والروايات الشفوية مادة كثيرة عن التاريخ الحديث للمجتمعات السودانية. وبالتالى صدرت وتصدر العديد من الدراسات العلمية عن هذه الفترات. وهذا بالضبط ما يفسّر شح الدراسات عن الفترة الوسيطة من تاريخ السودان التى تتسم بشح المصادر وبالتالى قلّة الدارسين والدارسات عن هذه الفترة الهامّة التى تشكّل قاعدة الارث الثقافى لأنّ فيها بدايات تلاقى الثقافة العربية الاسلامية مع الثقافة السودانية. فى هذا الاطار نحاول هنا أن نلقى الضوء على الداعية الفاطمى المعروف بابن سليم الأسوانى وعلى كتابه الضائع أخبار النوبة والمقرّة وعلوة والبجة والنيل.(١)

لا نعرف الكثير عن ابن سليم. فهو لم يرد له ذكر فى مصادر السيرة والفهارس المعروفة وكل ما نعرفه عنه ذكره هو نفسه فى كتابه المفقود والذى حفظ لنا شيئا منه المؤلّف الموسوعى أحمد ابن على المقريزى. وتوجد هذه الأجزاء التى حفظها المقريزى مبثوثة بين تضاعيف كتابين من كتبه. فالجزء الذى اعتبره المقريزى سيرة ذاتية لابن سليم اقتطفه وعرضه فى كتابه المقفى، الذى لازال مخطوطا. وفيه يحكى ابن سليم عن أنّ القائد الفاطمى جوهر الصقلى قد ابتعثه الى بلاد النوبة ليقوم بنشر الاسلام وليأتيه بمتأخرات البقط.(٢) وقد أفاد ابن سليم عن الشق الأول من مهمته قائلا أنّه انعقدت ندوة فى بلاط ملك النوبة حضرها قادة الكنيسة النوبية ودخلوا فى حوار معه انتهى بتحميله رسالة للقائد جوهر تحضه على قبول المسيحية. ولم

يتطرّق ابن سليم فيما وصلنا من معلومات الى ما جرى بخصوص الشق الثانى لمهمته وهو متأخرات البقط . وحكى ابن سليم أيضا أنّه صلّى العيد خارج مدينة دنقلا. وعند عودته كتب كتابا أسماه أخبار النوبة والمقرّة وعلوة والبجة والنيل ومن عليه وقرب منه من جيرانهم.

وأنّه قدّم هذا الكتاب لثانى الخلفاء الفاطميين، الخليفة العزيز بالله. (٣)

على ضوء هذه المعلومات يمكننا أن نحدّد إطارا زمنيا عامّا لتاريخ زيارة ابن سليم ولزمن كتابته لهذا السفر الهام. فالمعروف أنّ القائد جوهر قد وصل الى مصر فى عام ٣٥٨هـ/٩٦٨م واستمرّ ممثلا لسيده الخليفة المعز لدين الله حتى عام ٣٦٢هـ/٩٧٣م حين وصل الخليفة نفسه الى مصر. ومن هنا يتضح أنّ ابن سليم قد بدأ رحلته الى بلاد النوبة بين هذين التاريخين. ومن الصعب جدا أن نحدّد تاريخا لعودة ابن سليم. وليس بوسعنا أن نرجح أىّ من الاحتمالات حول هذه العودة وهل تمّت فى زمن جوهر الصقلّى أم بعد وصول الخليفة المعز. وحتى ما ذكره ابن سليم من أنّه رفع علما عليه اسم الخليفة المعز حين خرج للصلاة خارج دنقلا، لا يفيدنا كدليل على أنّ ابن سليم بقى فى النوبة حتى مجىء الخليفة المعز الى مصر. ذلك لأنّ الاعلام عادة يكون عليها أسماء الخلفاء وليس القوّاد وخاصة فى مسائل القيادة الروحية. وبالتالى فانّ ما ذهب اليه ترويو Troupeau مستندا الى مسألة هذا العلم من بقاء ابن سليم فى النوبة حتى زمن المعز غير صحيح. (٤)

وعلى العموم فانّ الثابت أنّه خلال السنوات الخمس التى انقضت بين وصول جوهر ووصول الخليفة المعز الى مصر بدأ ابن سليم رحلته.

وإذا افترضنا أنّه قد بدأ الرحلة فى أول سنة لمقدم جوهر فانّه من المحتمل أن يكون قد عاد فى فترة جوهر نفسها لأنّ خمس سنوات كافية على أسوأ الفروض لأن ينجز ابن سليم مهمته. كذلك فانّ ابن سليم قد قام بتقديم كتابه للخليفة العزيز بالله ثانى الخلفاء الفاطميين (٣٦٥هـ/٩٧٥م - ٣٨٦هـ/٩٩٦م). وهنا أيضا لا يمكن التثبّت من التاريخ الفعلى لانجاز الكتاب أو تقديمه.

رغما عن أنّ الأهداف المعلنة لزيارة ابن سليم، والتى ذكرت سابقا، فاننا نعتقد بأنّ صدور كتاب عن الرحلة يثبت أنّ هناك هدفا غير معلن وهو أنّ الرحلة كانت ترمى الى تقصى الحقائق عن النوبة. يثبت هذا الهدف تلك المرونة والواقعية التى اتسمت بها السياسة الفاطمية تجاه بلاد النوبة بفضل المعرفة العلمية والعملية التى وفرها كتاب ابن سليم. ومن هنا فقط نبعت أهمية الكتاب لمعاصريه بمعنى أنّ كتاب ابن سليم - مثل غيره من كتب الرحلات - قد وضع لمساعدة صانعى القرار العربى الاسلامى فى ذلك العصر. وهذا أيضا يفسّر اختفاء الكتاب منذ العصر الفاطمى حتى زمن المقريزى (توفى ١٤٤٥/٨٤٥). ولأنّ الكتاب كان لصانعى القرار فانّ نسخة - كأى تقرير ديوانى - كانت ضئيلة العدد وضيقة التداول. وحتى فى زمنه لم تشر الفهارس الى وجوده. والكتاب - التقرير - له مشابه فى عصره مثل كتابات الملهبى والمسيحى، وهما من كتّاب العصر الفاطمى الذين ضاعت أعمالهم أيضا. وقد اختلفا عن ابن سليم لكون أنّ أجزاء من كتبهما قد وردت فى مصادر سابقة لزمن المقريزى بكثير.(٥)

المصادر المطبوعة والمخطوطة التى أشارت لابن سليم

إنّ أغلب ما وصلنا من مقتطفات من كتاب ابن سليم هو ما وجدناه مبثوثا بين تضاعيف الخطط المقريزية. وللخطط عدّة طبعات، فقد ظهرت أولاها وهى طبعة بولاق فى ١٢٧٠هـ/١٨٣٥م، من تلك المطبعة الأولى فى الشرق الأوسط التى أقامها رائد التحديث محمد على باشا. ثم تلتها طبعة النيل فى ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م. وأخيرا وبفضل جهود الباحث المستشرق فييت Weit ظهرت خمسة أجزاء منقحة بحواش علمية رقيقة باللّغة الفرنسية فى أعوام ١٩١٠ و١٩١١ و١٩٢٢ و١٩٢٤ و١٩٢٧. ولكن للأسف لم تكتمل الخطط حين عاجلت المنية المحقق. وقد جمع المحقق لغرض تحقيقه هذا حوالى ١٦٣ نسخة من مخطوط الخطط. وبعد مقارنات دقيقة اعتمد نشر نصّه على أربعين مخطوطا بما فيها طبعتى بولاق والنيل. وبالتالى فانّ نسخة فييت - على نقصها - هى الأكثر دقة من الناحية النصّية والعلمية. ومن حسن الصدف فانّ كلّ ما اقتطفه المقريزى عن ابن سليم يقع فى الأجزاء التى تمّ تحقيقها.

إنّ المقتطفات من ابن سليم شكّلت كل أو بعض الأجزاء التي حملت العناوين التالية في طبعات الخطط الثلاث وهي طبعة بولاق والنيل وفييت .

(١) ذكر عجايب النيل.
(٢) ذكر الجنادل ولمع من أخبار النوبة .
(٣) ذكر أسوان.
(٤) ذكر تشعّب النيل من بلد علوة ومن يسكن عليه من الأمم .
(٥) ذكر البجة ويقال أنّهم من البربر.
(٦) ذكر البقط .
(٧) ذكرى بلاق.

ومن حسن الحظ أنّ المقريزي ـ كقاعدة ـ يذكر في بداية المقتطف أو في نهايته أنّه من ابن سليم أو من صاحب كتاب أخبار النوبة أو من مؤرخ النوبة .[٦] ولا توجد اختلافات سوى ترتيب الصفحات ،في نصوص الطبعات الثلاث .

من هذه الفصول السبعة اشتهر فصلان هما ذكر الجنادل ولمع من أخبار أرض النوبة وذكر تشعّب النيل من بلدة علوة ومن يسكن عليه من الأمم. هذان الفصلان يتناولان طبوغرافية وفروع وسكان النيل ولذا فقد غطّيا على بقية الفصول ـ على أهميتها ـ وصارا منذ عصر المقريزي مركز اهتمام الكتاب في العصور الوسطى والحديثة. ونستعرض هنا هؤلاء الكتاب الذين اهتمّوا بهذا الجزء من كتاب ابن سليم .

فابن أياس (المتوفى حوالى ٩٣٠هـ/١٥٢٣م) ومؤلّف كتاب نشق الأزهار في عجائب الأقطار هو ثاني الكتاب بعد المقريزي الذي يقتطف من الأجزاء عن النيل. وقد اتفق كلّ من يوسف فضل حسن،وتروبوا بأنّ مقتطفات ابن اياس مختصرة من مقتطفات المقريزي.[٧] ففي حين اعتمد ابن اياس على المقريزي نجد أنّ معاصره ومواطنه المنوفي (المتوفى ٩٣١هـ/١٥٢٤م) الذي اقتطف أيضا من فصلي النيل،ربما نظر مباشرة في أصل الكتاب ولم يعتمد على المقتطفات الواردة في الخطط المقريزية فهو يذكر أنّ كنية ابن سليم هي (أبو محمد)،وهذه لم ترد في النصوص

التى اقتطفها المقريزى فى خططه، أو فيما اقتطفه المقريزى فى المقفى كسيرة ذاتية لابن سليم. والدليل الثانى والهام هو ما أورده المنوفى من معلومات لم ترد تماما فى مقتطفات المقريزى. وهذه المعلومات حواها هذا النص عن علوة :-

"قال لى صاحب مملكة علوة : أنّه قاس أميل
شجرة منها فوجده ثلاثين باعا وأنّهم
يقطعون أغصانها ويحفرون الأصل يجعلونه
صهريجا للماء لأنّ أرضهم رملية تكشف
الماء وآبارهم بعيدة الرشأ"(٨) .....

لقد أدرك تروبو Troupeau أنّ المنوفى اعتمد على نص غير الخطط ولكن ما ساقه من أدلّة على ذلك لم توفق فى إثبات هذه الخاصية للمنوفى. فقد اعتقد أنّ استعمال المنوفى لصيغة كتاب أخبار النوبة لم ترد عند المقريزى فى حين أنّها وردت عدّة مرّات. كذلك أخطأ تروبو حين إعتقد بأنّ المنوفى يورد اسم كتاب ابن سليم على أنّه كتاب أخبار النوبة من أخبار النيل. ومصدر هذا الخطأ أنّ تروبو قد أخطأ فى القراءة والوقف والتسكين. فالجملة هى :-

"قال أبو محمد عبد الله بن أحمد
ابن سليم الأسوانى فى كتاب أخبار
النوبة من أخبار النيل ....."

ثم يقتطف بعد ذلك ما يريده. هنا نلاحظ أنّ بعد اسم الكتاب وقف ثم إعطاء للمعلومات وهى عن أخبار النيل.(٩)

إنّ المعضلة التى تواجهنا هنا هى ما إذا كان المنوفى يقتطف من نسخة من كتاب ابن سليم أم من كاتب اقتطف من كتاب ابن سليم؟ للاجابة على هذا السؤال يجب أن نذكر أنّ كتاب المنوفى هو مختصر لكتاب زين الدين الرشيدى الروض النضير والزهر العطير.(١٠) وبالتالى فانّ النصوص الواردة فى كتاب الرشيدى هى ما لخصه المنوفى. وحقيقة الأمر فانّ الاجابة على السؤال تصبح صعبة جدا إذا تذكرنا أنّ الرشيدى والمنوفى من كتاب عصر الانحطاط حين صار التأليف هو كتابة الحواشى والاختصارات والابتعاد عن الأصالة أو حتى التلخيص المنهجى

ولذا لا يمكننا التأكّد من أنّ الرشيدى نفسه قد اعتمد على نسخة لكتاب ابن سليم أو أنّه قام بالنقل من كتاب آخر. ورغما عن ذلك فاننا نرجّح أن يكون ما اقتطفه الرشيدى قد تمّ من كتاب آخر لأنّ نص الرشيدى قد ورد خلال نص يصف منطقة بقون،وهى من مناطق المقرّة فى حين أنّ نص المنوفى يتحدث عن أشجار التبلدى فى منطقة كردفان الحالية وهى تابعة لعلوة. فاذا كان النص منقولا من نسخة من كتاب ابن سليم لما حدث هذا الخلط.

وآخر من اقتطف من ابن سليم من كتاب القرون الوسطى هو القاضى معروف.[١١] وهو مثل ابن اياس قد اقتطف من المقريزى وكذلك ركّز على فصلى النيل ولكنّه زاد على ابن اياس بأن اقتطف ذلك الجزء الذى يطلق عليه المقريزى اسم "ذكر عجائب النيل". والذى يتحدث عن فرس البحر.

لم يختلف الكتاب المحدثون عن سابقيهم فى الاهتمام بفصلى النيل وتعميم تقويمهم لكتاب ابن سليم على أساس هذين الفصلين. فقد اعتقد بروكلمان وكراتشكوفسكى - وبحق - بأنّ وصف ابن سليم للنيل - وخاصة فى أعاليه - هو أقرب وصف جاء فى مصدر عربى من الواقع العلمى الجغرافى.[١٢] وقد عبّر كراتشكوفسكى عن دهشته لاختلال معلومات الادريسى (توفى ٥٦٠هـ/١١٦٥م) عن أعالى النيل وهو الذى جاء بعد ابن سليم وزيارته لمصر. ولكن ما سقناه من أسباب عدم توفّر كتاب ابن سليم ربما كان سببا فى عدم اطلاع الادريسى عليه.

لقد أخطأ الكتّاب المحدثون حين اعتبروا كتاب ابن سليم كتابا فى الجغرافيا. فرواج الفصلين عن النيل بين الكتاب فى القرون الوسطى والحديثة سببه دقة وصف ابن سليم. وهذا الوصف الدقيق هو الذى أعجب المقريزى لدرجة أنّه حين وصل الى الجزء الذى يصف فيه ابن سليم مدينة دنقلا،وهى عاصمة مملكة المقرّة المسيحية،قال"وذكر صفتها"، أى صفة مدينة دنقلا، ثم قام بحذف وصف دنقلا واستمرّ فى وصف النيل. ويبدو أنّ المقريزى - العالم الموسوعى يعرف أنّ عددا من الكتّاب الذين سبقوه قد أفردوا حيّزا لدنقلا ولذا استمرّ فى وصف النيل وتعرّجه وبيئته حول دنقلا وأغفل وصف المدينة نفسها. انّ إلقاء نظرة على محتوى ما وصلنا من كتاب ابن سليم توضح ما ذهبنا اليه

من أنّ الكتاب ليس للجغرافيا فحسب .

ملاحظات حول ما وصلنا من فصول الكتاب

ربما كانت فصول ابن سليم عن النيل والبجة هى الأقرب للكمال ممّا وصلنا من مقتطفات ،وبالتالى فانّ دراسة هذه الفصول بعمق قد تلقى الضوء على منهج ابن سليم.

فابن سليم يبدأ بتثبيت الحدود السياسية بين النوبة والبجة مع مصر. وفى حين أنّ النيل هو الظاهرة البيئية الرئيسية فى بلاد النوبة فانّ معادله فى أرض البجة هو الصحراء. وفى هذا الاطار البيئى تناول ابن سليم المناخ والغطاء النباتى والحيوانى ثم السكان وسبل كسبهم للعيش ثم أكثر القصص والمعتقدات الشعبية رواجا بينهم. وحين يصل الى السياسة يركّز على علاقات هذه الشعوب بالمسلمين فى مصر منذ الزحف الاسلامى اليها حتى زمن زيارته. وفى هذا الجانب السياسى نلاحظ أنّ المعلومات عن البجة أكثر غزارة وكمالا عن المعلومات عن النوبة. ويبدو أنّ للمقريزى دورا فى ذلك . فالمعلومات عن النوبة فى كتابات من سبقوا المقريزى متوفرة ولذا كان المقريزى انتقائيا فلخص تلك المعلومات المتفرّدة عند ابن سليم عن البقط وأسهب فى المعلومات عن البجة لأنّ ابن سليم هو المصدر الوحيد الذى يرجع له فى هذه المعلومات عن علاقة البجة والمسلمين فى مصر. نخلص من هذا الى أنّ ابن سليم لم يهتم بالنيل فى بلاد النوبة أو الصحراء فى أرض البجة كظواهر طبوغرافية بل ركّز اهتمامه على إبراز مدى تأثير النيل على النوبة وتأثير الصحراء على البجة. وهذا يعنى أنّ ابن سليم اهتمّ بدراسة علاقة التأثير المتبادل بين الطبيعة والمجتمع.

لقد أوضحنا فى السابق أنّ ما ضمّنه المقريزى فى كتابه المقفى من سيرة ذاتية لابن سليم لم يكن سوى تلخيص لأحداث وردت فى كتاب ابن سليم. ولكن ما يلفت النظر حقا عن المقفى هو تلك المعلومات التى أوردها المقريزى كسيرة ذاتية للمغامر العربى الباحث عن الذهب والسلطة المشهور بالعمرى . إنّ دراسة هذه المعلومات ومقارنتها بما ورد فى الخطط تؤكد ما ذهبنا اليه.

يمكن تقسيم تلك المعلومات عن العمرى الى ثلاثة أقسام :-

القسم الأول عن حياة العمرى قبل حضوره لمصر،والقسم الثانى عن سيرة العمرى فى بلاد النوبة وصحراء البجة وموته،والقسم الثالث عن طرده من بلاد النوبة ومغامراته فى مصر نفسها.

يذكر البلوى فى سيرة أحمد بن طولون بعض المعلومات عن العمرى . فهو يعطى اسمه ونسبه الذى يرجع به الى ثانى الخلفاء الرّاشدين، سيدنا عمر بن الخطاب . وحسب رواية البلوى فانّ شهرة العمرى تعود لنجاح حملة تأديبية قام بها ضد البجة فهزمهم وفرض عليهم الجزية. ثم يعطى البلوى معلومات عن المواجهة العسكرية بين العمرى وشعبة بن الحركام الذى قاد تجريدة طولونية ضد العمرى وكسب الجولة. كذلك يذكر البلوى والكندى معلومات عن الصراع بين العمرى والشاعر الشيعى ابن الصوفى الذى خرج فى صعيد مصر. كما يذكران - البلوى والكندى - ذلك الحوار الذى دار بين أحمد بن طولون واثنين من موالى العمرى ادّعيا بأنّهما قتلا العمرى تقرّبا لابن طولون. فقام ابن طولون بقتلهما جزاء غدرهما.(١٣)

كل هذه التفاصيل التى قمنا بتجميعها كما رواها البلوى والكندى وردت ضمن سيرة العمرى الموجودة فى المقفى. وبما أنّ كلاً من البلوى والكندى قد كتب قبل ابن سليم ففى اعتقادنا أنّ ابن سليم قد اقتطف منهما وأنّ المقريزى قد وجد هذه النصوص فيما اقتطفه ابن سليم.

وعموما،فانّ أغلب المعلومات الواردة فى سيرة العمرى لم ترد فى أىّ من المصادر الغربية التى اهتمّت بالسودان الشرقى. وهى معلومات لا تتوافر إلاّ لمن كان من المقيمين فى أسوان حيث أنّ هناك معلومات أتت من تواتر روايات شفوية. وهناك أشعار رويت عن معارك خاضها العمرى . كما أنّ هناك معلومات تفصيلية عن الصراع الذى دار بين العمرى والنوبة وبين العمرى والحدارية فى أرض المعدن. فالمعلومات عن الصراع بين النوبة والعمرى لا يمكن أن تتأتّى إلاّ لمن زار البلاط النوبى واستقى معلوماته من هناك كما أنّ المعلومات عن الصراع بين العمرى وربيعة فى حلفها المعروف بالحدارب لا يتأتى إلاّ لمن زار أرض المعدن وأسوان والمنطقة الحرّة فى المريس.(١٤) نخلص من هذا الى القول بأنّ طبيعة المعلومات ومصدرها هى التى

تشكّل التأكيد القاطع بما ذهبنا اليه من أنّ المقريزى فى المقفى اقتطف سيرة العمرى من ابن سليم.

يؤكد أيضا ما ذهبنا اليه ما نلحظه من استعمال المقريزى لأجزاء من المقتطفات فى الخطط ، والتى يشير فيها صراحة الى أنّ مصدره ابن سليم فى المقفى وأيضا من سيرة العمرى فى الخطط . فعند وصف ثنية النيل الكبرى فى الخطط أدخل جملة واحدة عن العمرى "ومنه خرج العمرى" ومرّة أخرى عند ذكر الأحداث التى وقعت فى منطقة ثنية النيل بين العمرى والنوبة أعاد المقريزى اقتطاف ثنية النيل واقتطف أيضا جملتين فى الخطط فى الجزء الذى عنوانه "ذكر أسوان" وهى قوله :"بحيث يقول عنها عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى فى كتاب أخبار النوبة : وأنّ أبا عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمرى لمّا غلب على المعدن بعث الى أسوان يسأل التجار الخروج اليه بالجهاز من طريق المعدن،فخرج اليه رجل يعرف بعثمان ابن حنجلة التميمى فى ألف راحلة فيها الجهاز والبر.....الخ..."

وفى حين أنّ المقريزى استعمل هذا المقتطف فى الخطط للتدليل على ثراء تجار أسوان نجد أنّ هذا النص جزء لا يتجزّأ من القصة فى المقفى. من كلّ هذا يتضح أنّ ابن سليم الأسوانى قام بتجميع سيرة العمرى من مصادر مكتوبة كالبلوى والكندى ومصادر شفوية من أسوان والنوبة وأرض المعدن،حفظها لنا ـ لحسن الحظ ـ المقريزى فى المقفى دون أن يشير الى صاحبها.

مصادر ابن سليم لكتابه كتاب أخبار النوبة

بعد أن تجمّع لدينا كلّما اقتطف من ابن سليم فى المصادر العربية التى وصلتنا،والتى أمكن الاطلاع عليها ينبغى أن نحاول الالمام بالمصادر التى اعتمد عليها ابن سليم. وبقراءة النصوص بعمق وتأنّ نلاحظ أنّ ابن سليم اعتمد على مصادر متعدّدة ومتنوّعة للغاية ،وهذا يوضح المقدرة العلمية والتمكن المذهل للمؤلّف وتعكس جدّيته التامّة فى الاعداد لكتابة مؤلّفه أثناء وبعد رحلته الى السودان الشرقى . فهو قد قام بقراءة كلّ ما كتب عن النوبة والبجة من قبله. فهو يقتطف نصوصا يسندها للجاحظ وابن عبد الحكم ويقتطف

من خطب يسندها لعلى بن أبى طالب . وفى سيرة العمرى يقتطف من البلوى والكندى كل ذلك فى ثنايا فصله عن أرض البجة ونشاط العمرى فيها وفى صعيد مصر. وفى فصله عن البقط يذكر الواقدى وابن وهب وكليهما - كما يذكر ابن النديم فى الفهرست - قد ألّف رسالة عن البقط ولكنّهما ضاعتا ولم تصلانا للأسف .

مصدر آخر اعتمد عليه ابن سليم هو ارشيف الدولة الاسلامية فى مصر وارشيف الدولة النوبية فى دنقلا. فمن مصر أثبت نصوص الاتفاقيات التى عقدت مع البجة وأثبت النّص الأول والتغييرات الموثقة فى اتفاقية البقط التى شوّهها المقريزى بما أضافه ونسبه الى ابن سليم.(١٥) ولولا ابن سليم لما عرفنا نص الاتفاقية التى وقعها عبد الله بن الجهم وكنون بن عبد العزيز ملك البجة. ويبدو أنّ ابن سليم قد تحصّل على بعض الوثائق الرسمية عندما زار بلاد النوبة. فهو يذكر بوضوح أنّ تعديل البقط فى زمن المعتصم كان مكتوبا فى وثيقة بقيت بأيدى النوبة. ويبدو أنّه نقل من هذه الوثيقة ما كان على المسلمين أن يدفعوه للنوبة وقد تفرّد ابن سليم بهذا النقل.

أيضا اعتمد ابن سليم فى معلوماته على ما دار من مناقشات وما سمعه من أقوال بعض الشخصيات الهامّة والخبيرة . ففى المقرّة التقى بالملك عدّة مرّات . أولاهما عندما دعاه للاسلام فى مجلس ضمّ العديد من شخصيات البلاط والكنيسة فى دنقلا. والتقى بالملك عدّة مرّات أخرى عندما كانا يسيران بين الجداول والغيطان فى أوقات فراغ الملك . كما أنّ التفاصيل الدقيقة للصراع الذى دار بين العمرى والدولة النوبية وما شبّ خلال هذا الصراع من خلافات بين ابن أخت الملك وولى العهد وبين ابن صلب الملك ، لا يمكن أن يكون مصدرها سوى روايات البلاط الملكى . وهذا يشير الى أنّ المقرّة كرصيفاتها الافريقيات كان لها قاص أو راوية مهمّته حفظ تاريخ الأسرة المالكة. وكما هو معروف فانّ أغلب التاريخ الافريقى كتب ويكتب اعتمادا على هذه الروايات . كذلك استقى ابن سليم معلوماته عن كثرة تواجد فرس البحر عند ثنية النيل الكبرى وعن بعض أسماك نهر عطبرة من أحد موظفى البلاط النوبى واسمه سيمون ويقول أنّه يشغل وظيفة صاحب عهد بلد علوة.

ومن تلك السطور التى اقتطفها المنوفى،والتى حكت عن استعمال أشجار التبلدى كخزّانات للمياه ،عرفنا أنّ ابن سليم قد استقى معلوماته من ملك علوة.

بالاضافة لهذه الشخصيات صانعة القرار،نلاحظ أنّ ابن سليم التقى بأناس آخرين اهتمّ بهم لخبرتهم حول موضوع محدّد،وأفاد من معلوماتهم فقد التقى برجل أتى دنقلا من بلاد تبعد مسافة ثلاثة أشهر عن النيل والتقى برجل آخر حكى له عن تجارب أجراها بخلط مياه النيلين الأبيض والأخضر (الأزرق).

ولاشك أنّ أهم مصدر لابن سليم هو اهتمامه بتجربته وقدراته على الملاحظة إبّان هذه الرحلة ،فالانبهار بدقة وصف ابن سليم للنيل من أقصى الشمال وحتى سوبا يجب أن يكون انبهارا بقدرة هذا الرحّالة والعالم على الملاحظة. ولهذه القدرة الفريدة ترجع معلوماتنا عن تنظيم الدولة والوعى الاجتماعى ووسائل وطرق كسب العيش وعادات الأكل والشرب والعادات الفلكلورية فى المقرّة وعلوة والبجة.

بقى أن نذكر أنّ كلّ ما قلناه يجب أن يعتبر دراسة أولية إذ أنّ ما وصلنا من هذا الكتاب الهام لا يعدو أن يكون جزءا من كتاب ضائع.

الهوامـــــش :-

(١) هذه المقالة مقدمة لمحاولة جمع كتاب ابن سليم من بعـــــض المخطوطات والكتب العربية. وإنّني لأناشد الاخوة المهتمّيـــــن بقراءة كتب التراث داخل وخارج السودان أن يساعدوا فى البحث عن هذا الكتاب الهام أو اضافة أى مقتطف لم يكن معروفا مـــن قبل.

(٢) الحاج حمد محمد خير "زيارة ولى عهد النوبة الى بغداد زمـــن الخليفة المعتصم" المؤرخ العربى، العدد ٢٣، ١٩٨٣ ص ١١٥-١٢٥).

(٣) المقريزى، التاريخ الكبير المقفى، ٤ مجلّدات ،دار الكتـــــب المصرية رقم ٥٣٧٢ تاريخ ج ٤ لوح ٢٢٧ ب (لاحقا المقفى).

(٤) Troupeau 'G la Description de la Nuba dal-Uswani' Arabic , 1, (1954), pp.276-88 esp p. 277

(٥) إنّ ظاهرة ضياع كتب العصر الفاطمى لها تفسيران. أولهمـــــا إيمان الشيعة بشكل عام بأنّ إمامهم يحيط بعلم السمـــاء والأرض وبالتالى فانّ الكتب هى له وحده والصفوة القريبة من أتباعـه الذين يسمح لهم بذلك . ولهذا السبب فانّ عدد النسخ مـــــن الكتاب يكون ضئيلا وبالتالى عرضة للضياع والتلف . أمّا التفسير الثانى فهو أنّ أعداء الشيعة من المدارس الاسلامية الأخـــــرى يقومون بشكل مستمر بحرق كتبهم. أنظر حسين مروة ، النزاعـــات المادية فى الفلسفة العربية الاسلامية. جزءان (بيـــروت ،١٩٨٠) الجزء الأول ، ص ٤٩٣.
جزيل شكرى للدكتور بشير ابراهيم بشير الذى لفت نظرى لهـــذه المسألة.

(٦) يبدو أنّ هذه الاشارات الواضحة هى التى جمع بها مصطفى مسعـــد النصوص التى أسندها لابن سليم ولكنّه لم يلحظ اقتطاف المقريـــزى لابن سليم فى كتاب المقفى .

(٧) "Ibn Sulaym Al-Sawani" in Encyclopedia of Islam (1971) vol. 111,p.949.

(٨) المنوفى، " الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد"، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٢٩ تاريخ. لوح ١٣ ب مسعد، المكتبة، ص ٤٠٦.

(٩) كذلك اقتطف المنوفى خمس فقرات من ابن سليم وليس أربع كما أحصاها تروبو

(١٠) مسعد، مكتبة، ص ٣٩٢ (حاشية).

(١١) القاضى معروف، " كتاب الأخبار عن مصر الأمصار"، مخطوط لوح ٨٦ ب وجدت هذا المخطط فى مكتبة جامعة الملك عبد العزيز بجدّة ـ تحت الرقم ٣٠٨. وللأسف لا توجد معلومات عن المؤلّف ولكنّه يذكر ـ فى ثنايا مخطوطته ـ أنّه زار مصر فى ١٥٣٦/٩٤٣. وإنّى لأنتهز هذه الفرصة لأتوجه بجزيل شكرى للدكتور طاشقندى عميد مكتبة جامعة الملك عبد العزيز بجدّة بالمملكة العربية السعودية.

(١٢) C. Brocke Imann, Geschicte Der Arabischen Literature, Erster Czweiter Dritter suppbment band, vels, (Leiden, 1937-42) pp. 410 (Mereafter sl. 11, 111)

كراتشكوفسكى، أدب الرحلات الجغرافية، ترجمة صلاح هاشم (القاهرة، ١٩٦٣) ص ١٩٢-١٩٣.

(١٣) البلوى، سيرة أحمد بن طولون. تحقيق كرد على (دمشق، ١٩٣٩) ص ٦٤-٦٧.

الكندى، كتاب الولاة وكتاب القضاة. تحقيق جوست (ليدن، ١٩١٢) ص ٢١٣ ـ ٢١٤ نقل ابن الأثير حرفيا عن البلوى قصة مقتل العمرى راجع الكامل فى التاريخ، ١٢ ج (بيروت، ١٩٦٥-١٩٦٦) ج ٧ ، ص ٢٦٤.

(١٤) M.K." Medieval Eastern Sudan and the Arabs: A study in the Evolution of Economic Relations G 40-1400 A. D." Unpublished ph.D. thesis, U of K. 1982, p.230-330.

(١٥) الحاج حمد محمد خير، المرجع السابق ص ١٠٥-١١٥.